محنة الذات وتجلياتها في رو اية الزنجية لعائشة بنور

Self-distress and its manifestations in the novel The Negress by Aisha Bennour

وليد عثماني[1،*]

[1] جامعة سطيف1، (الجزائر)، o.otmani@univ-setif2.dz

مخبر: السرديات والأنساق الثقافية

تاريخ الإيداع: 2023/01/01 **تاريخ المراجعة**:2023/02/20 **تاريخ النشر**: 223/03/31

ملخص:

اعتنت الدراسات النقدية بالعنف في الكتابة السردية باعتباره أحد الموضوعات الكبرى في الأدب الإنساني قديما وحديثا، ومعتبرة الأدب وثيقة تعكس المكانة التي يحتلها في تجارب الأفراد والجماعات، لتشكل الرواية بذلك آلة تصوير تنقل صور العنف ومشاهِدِهِ معبرة عما سكتت الصورة عنه سردا. وفاتحة المجال أمام القارئ ليشتغل باستراتيجية يقارب فيها توظيف الألم والجسد وتمثلاته، مُبرزا جماليات التوظيف التي عمل الروائي على حبكها وسردها في شكل عقد متناهية في الانسجام.

نحاول في هذا البحث رصد مواطن تسريد الألم في رواية "الزنجية" لذلك تتبعنا تيمة الوجع وأسبابها كالزنوجة، والهجرة، وختان الإناث، وغيرها، قصد الكشف عن تمثلاتها وحيثيات توظيفها في الرواية. ومن ثمة دراستها وفق مستويات الحياة الاجتماعية والنفسية للإنسان. فرواية الزنجية لعائشة بنور تعالج موضوعات المسكوت عنه والهامشي في ظل صراع الهويات وتضاربها، وصراع تحقيق الذات وانتصارها على الوجودية المشوهة، والذات المكسورة الحزينة، والهوية المشوهة، وللعيش بسلام وطمأنينة.

الكلمات المفتاحية: محنة، الألم، الزنجية، الذات، عائشة، بنور.

Abstract:

Violence in narrative writing has always been a major theme in human literature and in its critic. Literature chronicles its role in people's lives. Thus, the novel is a camera that records and shows violence and says what the pictures did not. It allows the reader to approximate pain, the body, and its representations, revealing the author's aesthetics of use as infinite knots in harmony.

In this study, we examine how The Negress depicts and discusses pain and its causes, such as negritude, emigration, clitoridectomy and others. We then examine it from a man's social and mental perspectives. The Negress by Aisha

* المؤلف المراسل

Bennour addresses unspoken and marginal issues. This is done in the context of identity conflict, self-realization and its victory over distorted existentialism, the broken and sad self, the distorted identity, and to live in peace and quiet.
Key words:*ordeal, pain, negress, self, Aisha, Bennour.*

تقديم:

لأن النفس البشرية بطبعها تنفر من الألم وتركن إلى عوالم اللذة التي تفتح الآفاق الرحبة أمامها. من هذه الفلسفة انطلق الأديب يكتب ما يعتري نفسيته من أوجاع وآلام تلم به، تنغص حياته، وتشوه رؤيته للحياة التي يُقبل عليها بكل ما أوتي من قوة. وهو بذلك يعبر عن أحادية النفس في المجتمع الذي يؤسس لمثل هذه الفلسفات التي نشأت فيما بعد في المخيال البشري وفق تراكمية وتراتبية متوارثة كابرا عن كابر.

بكتابة الألم يعيد الأديب كتابة نفسيته من جديد لتحقيق هويته وذاته التي غابت وسُرقت، بل اغتصبت مرارا وبشكل أكثر إيلاما ودموية؛ ويحدث ذلك حينما يكتب ذاكرته التي تجتر تلك الآلام بتفاصيل دمويتها وجراحها النفسة الغائرة. والكاتب هنا يعيد رسم حياته مركزا على جوانب أساسية فيها مثل: فترة طفولته أو مرحلة معينة من حياته سيرا نحو التسامي وهكذا تصبح هذه الكتابة حجر الأساس في العمل السردي ككل، تنصرف نحوها الأنظار والأذهان.

سنف في هذا البحث عند التقنيات التي استعملها السارد في كتابة مسرودات مشوقة، يعيش معها القارئ حدثا بحدث، ويتتبع نتائجها بشغف، مع كثير من الإثارة واستشراف النتائج بحالة من القلق. مع التركيز على شحن الذهن بشحنة هائلة من الخيال تشتغل على مستوى المراحل المتقدمة من العمل السردي باقتراح الحلول، ورسم النهايات وتأويلها والحكم على الشخصية إزاء الأحداث المتنوعة.

أولا/ تمثلات الوجعفي الكتابة السردية

من رحم المعاناة ومن شرايين الألم ينبثق الإبداع والتجديد، ليرسم عالما ملؤه الأمل دفاقا يخبربحياة ملؤها الأنس والسعادة التي تسعى إلى تحقيق "ذات" ترنو إلى التكامل الإنساني/الجسدي. هذا التأسيس قوامه جيل جديد من الكتاب يسعى إلى رسم الخطوط العريضة للحياة الاجتماعية بما تحويه من آلام وأوجاع، وما تبحث عنه من طموحات وآمال تحقق من خلالها ذاتها، تنفض عنها غبار السنين والقهر، والظلم والاضطهاد... القائمة تطول وتثقل الأسماع والأنفس بذلك الصدى الذي يتردد عليها.

لواء الكتابة الجديدة يحمل شعار "في البدء كانت الكلمة الجميلة" تلك الساحرة التي تبني بحروفها قلاعا للمعاني الصادقة تُعمل في النفس ما عجزت عنه الكثير من الأدوية على الرغم من محتواها وفوائدها. لكن الكلمة المحملة بالأمل تُسكن أعتى الألم وأقواه. تروم أن تغير كلمات "بلانكا" بطلة رواية الزنجية في قولها: "لكنني كنت جريحة؟! مثقلة الرأس والركبتين، مقهورة على شفرة الوجع فقط، تذكرت ما قاله الأطباء عن ردود الفعل الناجمة عن مرض العصر: التشاؤم واليأس. ولكن نحن دائما نعيش هكذا. أي مرض أكثر من هذا الذي يحاصر حتى أحلامنا. أجسامنا نحيفة، سيقاننا عارية، أقدامنا حافية، ملابسنا بالية، وعيوننا حزينة"[1] من خلال هذا

القول أرادت الروائية أن تقول على لسان "بلانكا": علينا الهروب إلى الأمل ولو في المخيال، ولو من خلال ترديد كلمات الأطباء كعلاج نفسي لنزعات التشاؤم واليأس التي تصيب الإنسان من جراء واقعه المرير. فإلى أي حد يغير السرد ندوب المنفى، وأخاديد الألم على أستار الروح؟

1 - كتابة الوجع نحو إعادة تشكيل الذات:

تشكُّل الواقع في النص السردي لا يعدو أن يكون رؤية إبداعية ينسج خيوطها الكاتب بألوان من الأوجاع، مسته وطالت جسده أو نفسيته أو ذاكرته... أو كل ما يشكل الجملة الحسية والجسدية عنده يقول سعيد بنكراد في هذا الشأن: "إن بناء قصة، استنادا إلى قوانين السردية الاصطناعية، يقتضي الخروج عن مسار ما من أجل إسقاط حالة حياتية تعد تشكيلا جديدا لكم زمني يتطور خارج مداره المعتاد. فعندما يحدد السارد بداية حدث ما، فإن الفعل السردي، الذي يعد سند هذا الحدث وأداته المثلى في التحقق، سيعلن عن ميلاد شخصية هي المدخل الأساس للإمساك بالعوالم الدلالية المحينة منها والضمنية. حينها تبدأ الأشكال الحياتية الجديدة في التشكل"[2] يتشكل الواقع في السرد من هذا المنظور بشخصيات ترسمه واجهة جديدة في بوتقة زمنية ليست بالهنية؛ إذ يعول عليها السارد كثيرا في توجيه بنية السرد. فحينما يربطها السارد بشخصية محددة "بطلة" فإن تدشين الفعل، بكل تبعاته، مرتبط بالمواجهة الأولى بين الشخصية وبين العالم الذي تلجه. كما أن وجود الحياة في السرد مشروط بإسناد وظيفة ما إلى محفل يقوم بإنجازها ضمن تجربة زمنية معدودة[3]

2 - تسريد الوجع الصامت في رواية الزنجية:

تجتمع في هذه الرواية باقة منسقة من الآلام التي تعيشها بطلتها، آلام ينوء بحملها أولي القوة والبأس الشديد. ولا غرابة في ذلك فمن يخبئ مشاعره الأليمة الموجوعة، ويتكتم عليها بصمت مطبق لتغدو حديث نفسه يتجرعه من ذكرياته الموجوعة عسلا مصفى... حتما يستطيع أن يتحمل ما لا تطيقه الجبال.

تعاني "بلانكا" بطلة رواية الزنجية من آلام شتى تتجسد في:

الوجودية المشوهة.

الذات المكسورة الحزينة.

الهوية المشوهة.

الغير/الآخر الظالم الطاغي.

المحنة أصل الحياة وموضوعها كبديل عن الفرع.

المجتمع الموجوع والخاضع، المضطهد.

هذه المشاكل/المحن وغيرها ترسمها الروائية عائشة بنور في ذات إنسانية تفيض أنوثة، عايشت زمنا من الألم والمعاناة حتى غدت عباءة توشح هذه الذات بصنوف من الأوجاع والمحن، فمنذ طفولتها وهي ترزح تحت وطأة ذاكرة تنبعث من فيافيها صور الدم تتمايل من جراء حد شفرة تقطع أوصال طفولة موءودة مغتالة.

فأساس المحنة كما ترويها بلانكا تلامس مستويات الحياة الاجتماعية والنفسية للإنسان النيجيري فأين يفر هذا الإنسان من مستنقع الفشل، والانهيار النفسي، والقهر الاجتماعي ناهيك عن الأحلام الهاربة والحسرة التي طبعت الوجوه السود فما تراها أضافت إلا سوادا على سواده "لقد أصبحنا نعيش في مستنقع الفشل، والانهيار النفسي، والقهر الاجتماعي، والأحلام الهاربة والحسرة ترتسم على كل الوجوه السود"[4] بهذه السردية الحبلى بالأوجاع ترسم الروائية ملامح الآلام، وتوزعها على شخصيات العمل السردي بالتدريج غير أن الحصة العظمى نالت من قلب البطلة "بلانكا".

ينعكس هذا الألم على البطلة "بلانكا" بدءا من صفحة الغلاف؛ ففي قراءة لصورة الغلاف تطالعنا صورة لامرأة مغمضة العينين شعرها يغطي جانبا من وجهها يتطاير إلى الأعلى كأنه يتطاير بسبب هواء حركته باتجاه الأعلى. أم بسبب سقوط المرأة إلى هاوية ما جعل الشعر يأخذ اتجاه الأعلى بسبب القوة الطاردة.
لون بشرة هذه المرأة أبيض على الرغم من أن العنوان يتحدث عن امرأة زنجية إذ كان من المتوقع أن تكون المرأة سوداء البشرة. لكن وجه المرأة على الغلاف يجسد اسم البطلة "بلانكا" التي تعني في اللغة اللاتينية البيضاء الشقراء، ولأنها من القارة السمراء فلون شعرها أسود. فلماذا "بلانكا" و"الزنجية" هذه الثنائية الضدية المتخالفة؟ وإنما التعبير هنا ينعكس على قلب بلانكا وليس على وجهها فحسب؛ ذلك القلب الذي تجرع صنوف الأوجاع، وجعلها تتخبط في حضور البياض مع السواد في هذ الثنائية يحيل إلى صراع الذات ووجعها مع نفسها من جهة، ومع مغتصبها من جهة أخرى، ويحيل هذا في الجملة إلى صراع الهويات وتضاربها... كل هذا في ظل التمييز العنصري وما تسبب فيه من آلام للذات في تحقيق نفسها والعيش بسلام وطمأنينة.

ثانيا/ تجليات محنة الذات في رو اية الزنجية:

1- عند بلانكا:

أساس المحنة التي ترويها بلانكا تلامس مستويات الحياة الاجتماعية والنفسية للإنسان النيجيري فأين يفر الإنسان النيجيري من مستنقع الفشل، والانهيار النفسي، والقهر الاجتماعي ناهيك عن الأحلام الهاربة والحسرة التي طبعت الوجوه السود فما تراها أضافت إلا سوادا على سواده "لقد أصبحنا نعيش في مستنقع الفشل، والانهيار النفسي، والقهر الاجتماعي، والأحلام الهاربة والحسرة ترتسم على كل الوجوه السود"[5] بهذه المأساوية تصور بلانكا حياة مجتمعها، ومحنه التي يغرق فيها إلى عنقه فبالكاد يتنفس هواء صافيا مفعما بالحرية التي تحقق إنسانيته، إلى يصل بها الحد إلى نعت حياتهم بالموتى "لم نكن ننتمي للحياة، كلنا كنَّا ننتمي للموت سواء نحن الذين بقينا في المكان نترقبه، أو أولئك الذين قرَّروا الرحيل عنَّا، وقطعوا المسافات البعيدة في الصحاري والقفار نحو ضفاف أخرى، حيث يلازمهم الموت في كل لحظة"[6]

في شكل صراع ذاتين داخل ذاكرة البطلة "بلانكا" تتأجج نار المحن كبركان ثائر يقتلها ويحييها كلما تجرعت تلك الذكريات، وفي الوقت نفسه يقتل فيها نساء القرية اللاتي شهدن دموية ختانهن. المراهقات اللواتي جالت السكين في أجسادهن من جراء "ختان وحشي"، من الصعب أن يتخيلنّ أنه من الممكن تعويض شيء مما حرمن منه، خلال مسيرة حياة ازدادت بؤسًا على بؤسٍ. فبالرغم من سعادة قارة إفريقيا بشقائها، كانت التسميات في الرواية دليل على حب الأرض المعذّبة، فأسماء أشخاص الرواية تفصح عن قبول الشقاء برضى،

"بلانكا" تعني الفتاة سوداء البشرة مقابل بياضها في أوروبا. "فريكي" تعني البرد والخوف حسب حاشية الكتاب مقابل الأمان الاجتماعي شمال المتوسط. أمّا "إفريقيا" اسم ابنة بلانكا أتت تسميتها تعبيرًا عن الحرص على الانتماء، لكن الخوف عليها من شفرة السكين واستيقاظ الألم الدفين والصراخ والأنين، وقسوة عجوز ختَّنت بوحشية مجتمعًا برمّته وأفقدته الأحاسيس، جعل الرحيل هروبًا واقعًا بالرغم من وحشة الغربة، "كنت أحسبه عالمًا مثاليًا، لكن بعد رحيلي عن حيِّزي الرَّمليّ، اكتشفت عالمًا أكثر بؤسًا وشقاء"[7]

والأشد فتكا بها . بلانكا . هو طفلتها إفريقية التي تنتظر يومها المشهود ومصيرها المحتوم كأمها: "اليوم، أنا الطفلة الصغيرة الكبيرة التي نضجت قبل أوانها، أحمل في مخيلتي مفاهيمَ جديدة للحياة تعلمتها فقط، في لحظة رعب بين يدي العجوز "مو" حين قالت لي ذات يوم:

.أنت الآن امرأة، لا أحد سيقترب منك؟!
"وقتها، نظرت إلى صغيرتها الهادئة بجانبها وهي تلعب بالتراب وداخلي يعتصر من أجلها ألمًا ولساني يتمتم:
.أ مٌّ في هذه السِّنِّ، هي لا تزال بحاجة إلى حنان الأمِّ؟" [8]

محنة الختان:تسرد البطلة بلانكا محنتها بأن تتذكر سنهاوهي بنت خمس عشرة ربيعا "عمري خمس عشرة سنة. ليبدأ كل شيء من هنا... هنا الطبيعة قاسية، وفي هذا المكان، ارتبطت ملامحي بأشياء أكثر قسوة، وأشدّها حزنا. ثمة أشياء لا يمكن نسيانها أو محوها، ولا أذكر منها إلا ّأنني سوداء البشرة، فأنا جميلة"

ترسم بلانكا مجنتها وهي تروي لحظات الألم في طفولتها الأولى على حد شفرة السكين الذي انتزع منها فرحة الحياة، وسرق منها ابتسامة الطفولة وصارت تعانق الحزن والألم "أما اليوم فالحياة هنا قد هزمتني منذ نعومة أظافري وسرقت ابتسامتي كطفلة تعانق الحزن والألم، منذ صرخاتها الأولى على شفرة السكِّين"[9]

2- عند أهل القرية:

تتجلى محنة الذات في رواية الزنجية لعائشة بنور في ألوان مختلفة تعايشها شخصيات الرواية جميعها، فمنها محنة في الجسد والصحة، ومنها محنة في الأرض وما تعكسه على الشخصيات، ومنها محنة البئر التي يستعملها أهل القرية، ومنها العادات والتقاليد وما عادت به على المجتمع من آلام وأوجاع كظاهرة ختان البنات وما يتعرضن له من تشويه في أغلى ما يملكن. وهنا تفصيل لهذه المحن:

محنة الأرض: حتى الأرض تعاني أيضا فهو مزيج الذات الذي يخلط لحمها بعظمها؛ إذ لم تنج هذه الأرض من عبث مزجَ طيبها وعذوبتها بسموم بثها هنا وهناك، لوث فيها كل شيء ينبض بالحياة هواءها ماءها وأنفاسها"توفي الصغير طوقو جوعا، وهو وحيد والديه. الرضيع لم يرتو من حليب أمه، وغيره كثر. وحالات من الإجهاض تتعرض لها النساء المنطقة. الموت حصد العديد من الناس بسبب إشعاعات منجم آرليت، وشدَّة التلوث البيئي بالمخلفات الذرية، والتلال المتراكمة من النفايات الس ّامة، والمياه المل ّوثة قضت تقريبا على كل

شيء ينبض بالحياة. حتى الهواء الذي نتنفسه اختنق هكذا كان يردّد شباب المنطقة حينما يثورون على قساوة الأوضاع"10

محنة الفضاء الملوث:"في هذا المكان الموحش والمقفر، الأفق الجميل اعترته غمامة صفراء وسوداء، ولم تعد الصحراء في نظري ذلك الجمال الساحر الذي يبهر السائح منذ الوهلة الأولى، ولا تلك الكثبان الرملية الذهبية التي تبدو في تموجاتها كشعر حسناء طويل يتدلى"[11]

محنة الطفولة الكادحة:طفولة بلانكا الكادحة منذ الطفولة وهي تحمل هم إعاشة أسرتها "كنت مجرد فتاة تبحث عن رغيف الخبز لعائلة فقيرة في منطقة تكاد تنعدم فيها الحياة، وتحفظ الأشعار التي لم تتوقف عن الغرق في الحزن والتشبث بالحياة، كي تمنحني الكلمات صرخة مكتومة أطلقها في هذا الفضاء القاسي لتحيا على رماد مدن أخرى. تحيا وتموت على وجعنا"[12]

محنة الذات عند النساء القرية:محنة أخرى عايشتها بلانكا الخوف على نفسها وعلى أختها من الاغتصاب والعمل في الدعارة

"أجبر ت على ممارسة الدَّعارة.

ثم تصمت هنَيْهَةً، وكأنَّها ترى تفاصيل الأحداث التي عاشتها ماثلةً أمام عينيها...

تواصل كلامها:

فتيات في العاشرة من العمر يجْبَرْنَ على ممارسة ذلك الفعل المشين، وهنَّ لا يعرفن ما يفعلن، أو ما يجري لهنَّ، وأخريات أرغمتهن الظروف الصعبة والقاسية هناك على ذلك. راودني هذا الشعور المخيف، وخشيت على أختي الصغرى فيولا وعلى نفسي، وحتى على أمي ووالدة فريكي، وعلى كل الفتيات الهاربات من جحيم الفقر، والجوع والعطش، وشفرة السكين"[13]

ثالثا/ مكاشفات الذات في رو اية الزنجية:

1- محنة البئرودلالة الدلو:

تسرد بلانكا ارتيادها مع نسوة القرية على البئر، للتزود به قصد تسيير شؤون البيت. وهي في الوقت نفسه تطلعنا على جانب من المحنة التي تتعذب فيها هي على وجه الخصوص، ونسوة القرية عموما "عندما كنَّا نلتقي عند البئر تقابلنا ليمار، فتاة الذهب، بوجهها الصبوح الغارق في الحرمان وبابتسامة تحاول أن ترسمها على محياها في استحياء، وتواري نظرتها عنَّا لتدندن أنغامًا من أغنية لميريام ماكيبا، أو كما لقبها الزعيم نلسون مانديلا "أمُّ إفريقيا".[14] فصورة المرأة في تلك القبيلة صورة مملوءة بالقهر والقسوة، تذوق العذاب بشكل يومي كدلو تلقى في بحر الأحزان لتعود عليهن بالخيبات والآلام. فمع عملية التكرار المستمر في إخراج ما تدر به تلك البئر من قطرات ماء ملوثة وموبوءة، تحمل في خريرها أصواتا من شحنات الذات وآلامها،لإفراغها مؤقتا ثم إعادة تعبئتها من جديد في حركة دؤوبة يومية مستمرة...

هكذا تجتر "بلانكا" آلامها كدلو يُلقى في بئر آلامها ومكنوناتها النفسية فراغا لتسحبه مليئا بأحزانها المخبوءة تلقيها لتتنفس برهة وهنيهة ثم تعاود الكرة وهكذا. فما البئر هنا إلى معين أحزان القرية التي تئن تحت وطأة المحن التي ألمت به، جاعلة منه موعدا مع الألم والفزع "وعند وجعي أقولها بكبرياء. وأنا أجر قدميَّ المتهالكتين صوب البئر.

أسلك مسافة طويلة للوصول إلى البئر وجلب الماء. بئر واحدة في قرية نائية نتزاحم عليها.

نساء يحملن صغارهنَّ على ظهورهن، ذهابًا وإيابًا.

كل واحدة تمد الحبل في قعر البئر، وصغيرها مربوط فوق ظهرها،

ثم تسحب الدلو المملوء بالماء حتى تتقطع أنفاسها أو تكاد.

ننتظر الطابور الذي لا ينتهي"

ففي الانتظار الممل إلى مشاحنات بيننا.[15]

هذه المياه لها نصيب كبير في الإسهال الذي قد يصيب الأطفال من جراء تلوثهامياه نهر النيجر غير الصالحة للاستهلاكومع ذلك نلجأ إليها بسبب حاجتنا الماسة لها. هي حقا معاناة لا تنتهي، والقوَّة لا تكفي...[16] بهذه الكلمات تنهار الذات أمام جملة المحن التي أصابتها في العادات التي تقوم عليها الحياة اليومية.

2- تشظي الذات في رو اية الزنجية:

تتشظى الذات في رواية الزنجية إلى كيانين مؤنثين حائرين على حالهما الأول غارق في الحلم وفاجعة عملية الختان وما أحدثته من آلام، والكيان الثاني الحائر في تجاوز هذا الحلم والعيش بسلام لتنجو به ابنة البطلة "بلانكا" من مأساة والدتها. كما تتحرر هذه الذات حينما تتعدى الجسد إلى خارجه لتكون لها حرية التجول في الواقع وتسريده على هيئة امرأتين زنجية وشقراء وفيهما سر ينبض بالماضي متردد وخائف من عودة الوجع، وآخر ينبض بالحياة والأمل نظرته متحدية للراهن بشجاعة من خلال نظرتها المحدقة إلى المجهول بثقة بتخطي الحياة الماضية وتحقيق الأفضل.

"بعد ثلاث وعشرين سنة مازلت "بلانكا"، الطفلة التي وأدوا أنوثتها، ودفنتها معها لحظة صراخها التي انتحبت مع نعيق البوم. مازلت أحمل في سريرتي حقدًا كبيرًا نحوهم لِمَا أحدثوه في حياتي من تغيير مفاجئ على جسدي النحيف. لقد فهمت أخيرًا أنَّ براءتي قد فقدتها وأخريات، أثناء تجميعنا في الكوخ تحت حر شديد، ونحن بين أيادي خشنة لا ترحم براءتنا، ولا تأبه لصراخنا المرير"[17]

من هذا القبيل يقوم السرد في الرواية على نسق التناوب في سرد أجزاء من حادثة ماضية، مازالت تؤلم وتؤثر يأبى النسيان أن يطوي صفحاتها صفحا وعفوا. ثم ينتقل السرد إلى أجزاء من قصة أخرى باعتماد البناء الدائري بمعنى أن الأحداث تبدأ من نقطة ما ثم تعود إليها لتنتهي بها.

"كنت قاصرة، عمري خمسة عشر عاما فقط تزوجت رغما عني"، قالت سوليتا.

بدت سوليتا وهي تقهقه من شدَّة ألمها كالمجنونة، ولكن في الحقيقة هي في كامل قواها العقلية، كانت تقرأ لنا من أوراق بالية تحملها دومًا معها:

أن تكوني امرأة.. هذا هو الألم

عندما تصبحين فتاة تتألمين

عندما تصبحين عاشقة تتألمين
عندما تصبحين أمًا تتألمين
ولكن أكثر ألم لا يطاق على وجه الأرض
أن تكوني امرأة لم تعرف كل هذه الألام
ألما.....ألما..."[18]

رابعا/ من الجماعة إلى الأنا ولحظة تحقق الذات:

إن وجود الفرد الذي يشير إلى ذاته بالضمير "أنا" وهو عندما ينطق بضمير المتكلم هذا لا يزعم لنفسه مكانا فريدا ومنظورا فريدا في العالم فحسب، بل إنه يشير بهذا الضمير إلى كائن فريد، وقد استخدم البعض أحيانا لفظ(Mineness)(خصوصية الذات) للتعبير عن وعيي بأنني أمتلك وجودا فريدا ومتميزا عن وجود أي إنسان آخر. فأنا لست "عينة" من صنف أو فئة؛ بل إنني "أنا" وهذه العبارة الأخيرة ليست مجرد تحصيل حاصل، وإنما هي تأكيد لوجودي الفردي الفريد (Unique) من حيث أنني موجود عيني؛ يظهر بوصفه هذا الوجود العيني وليس أي موجود آخر.[19] لأن كل شخص هو فريد في ذاته، فكيف سيتم إدماج كل فرد يشير إلى نفسه بضمير المتكلم "أنا" إلى جماعة تشير إلى نفسها بضمير المتكلم "نحن"؟ كيف تتم معرفة الغير حيث يشكل كل واحدا منا ذاتا متفردة؟ وماذا يتطلب مني الوجود مع الغير؟ وأي ديالكتيك ستنبني من خلاله علاقتي بالغير؟

ففي داخل البطلة "بلانكا" صوت ثان صرخ باسم امتلاك الوجود "إنني أمتلك وجودا فريدا ومتميزا" يأبى الجماعة ويرتدي ثوب الخروج عنها، مغذيا على خبز الأنا المتعاظم في نفسها، ذلك الأنا الذي الأسود الجميل المتميز في نفسه عن أقرانه من مجتمعه، "في السابق، كان الإنسان بداخلي يتكلَّم باسم الجماعة، أما اليوم، فالإنسان بداخلي يتكلَّم باسم الأنا، ويردِّد:
لأنكِ سوداء، أنتِ جميلة
مقولة سنغور تلازمني في حركاتي وسكناتي فكنت أسافر بذنب أنوثتي التي كانت تستصرخ من ألم شفرة السكيّن، وفي الوقت نفسه محملة بوهج الأحلام الجميلة خلف الصحاري..."[20] ألم "بلانكا" الدفين غذى "أناها" وجعل منه قوة تتعاظم في داخلها بتمردها على قيم المجتمع في ختان البنات، ورفضها للسلطة التي تتحكم في رقاب النساء جميعا "لم تعد الحياة هنا تجسد الذات الانفعالية ورؤية ما لا يرى، بل أصبح الإنسان، في هذه المنطقة البائسة، مغلوباً على أمره، يصارع الطبيعة القاسية وغرابة طقوسه، وواقعه المزري. هنا، المكان والإنسان تغيَّر بالنسبة لي، شكلهما الواقعي، وتحوَّ لت الطفولة إلى واقع بصري مبهم لا وجود لواقعها، ولا روح لذاتها المنكسِرة"[21]
رفضت "بلانكا" الحالة المزرية التي يعيشها المجتمع كالزواج من الفتيات القاصرات، الجوع الذي دمر عائلات وفتك بالرضع، تلك البئر التي جنت على الكثير بالأمراض والأوبئة، بحبلها المهترئة المتعبة ودلوها المثقوب. فعدم السكوت والجرأة على التحدي علامة للأنا المتفرد عن الجماعة "هكذا كان الإنسان بداخلنا جماعة، وكنت أنا والصمت ووجعي، إنساناً آخرَ، أحاول جمع شتات شرَّعت مراكبه نحو الرحَّيل، لأسرح في المنفى مكرهة، وليبقى الإنسان المتكلِّم بداخلي (الأنا) يحفظ ولاءه وانتماءه لمجتمعه وللمكان"[22]إن الوجود البشري لا يتطلب بيئة مادية فحسب؛ بل يتطلب كذلك بيئة شخصية (أي مؤلفة من أشخاص). فأنا موجود داخل العالم ألتقي بأشخاص

لكنهم ليسوا مجرد أشياء تنتمي إلى العالم فقط، فأنا أعرفهم على أنهم موجودات تتعايش معي، إن صحّ التعبير وإن الغير موجودون في العالم بنفس الطريقة التي أوجد بها "أنا" في هذا العالم، أعني بوصفهم مراكز للاهتمام منها يبنى العالم. ولا يمكن أن يستخدم هؤلاء بوصفهم وسائل وأدوات فقط، بل هم فاعلون مثلي[23]

هذا ما ذهبت إليه الروائية بنور على لسان بطلتها "بلانكا" تحقيقا للمقولة إني أحقق وَعْيِي الذاتي وأصبح ذاتي عبر كشف نفسي للآخر، إن الأفعال الأكثر أهمية، أي تلك التي تشكل الوعي الذاتي، تتحدد بالعلاقة مع وعي آخر (بالعلاقة مع الـ"أنت")"[24] حيث انطلقت من انفصام الأنا عن الآخر حتى تحقق أناها وتنتصر عليها بخروجها من الجماعة الراضخة المستسلة، فبلانكا فهمت المعادلة أن هناك شعورا داخل كل إنسان لكي يحظى بتقبل الآخرين له، وذلك لكي يقْدر على تقبله لنفسه وقبولها. وقد أثبتت الدراسات العلمية أنك لو أحسنت التعامل مع الآخرين فإنك تكون بذلك قطعت 80 ٪ من طريق فهم ذاتك.[25]

1 - ثنائية: الوطن/الغربة. الهجرة/الحرية:

تعبر عائشة بنور في هذا الموضوع بشكل خاص عن فقدان الهوية والحرية والإحساس بالاغتراب والضياع وتنكر الوطن لأبنائه؛ فلا ماء ولا خبز، ولا حياة كريمة تحفظ لأبنائها أدنى شروط الحياة. حياة تؤثثها القسوة والجوع والآلام المختلفة، تتشكل محنا ترويها البطلة "بلانكا" على لسان أمها وزوجها فريكي وجميع أهلها في القبيلة فبعدما هاجرت "بلانكا" وأهلها جراء الرعب الذي لحقهم من جحيم الموت الذي كان يترصدهم إلى أقرب نقطة حدودية لوطن آخر مسالم يحتوي على الخبز الكثير والكثير من الأحلام التي فقدت في الوطن تقول الروائية على لسان "بلانكا" مخاطبة أمها بشأن الهجرة وما فيها من حياة رغدة وعلى رأسها تسلم أختها الصغيرة من الختان:

"وهل هناك حياة أخرى خارج منطقتنا هذه؟

ابتسمت، وقد آلمني ذلك قائلةً لها:

. حياة أخرى، وأناس آخرون، وخبز.. أجل خبز..

ردَّت باستغراب، وكأنها نسيَّت كلمة خبز منذ سنين:

. قلتِ خبز!

. أجل، الخبز، وحياة أخرى لا تشبه حياتنا، ولا تشبه جفاف الأرض، وحرّ السماء، وفوق كل ذلك ستعيش أختي الصغيرة فيولا، وصغيرتي إفريقيا بعيدًا عن شفرات الحلاقة التي تبتر جزءًا من أعضائها التناسلية. "[26] بهذه المأساوية تكشف عائشة بنور عن أساس المحنة التي تعيشها بطلتها الزنجية في وطن فقد نكهته، فاستكان أهله للخضوع والخنوع، في فعل سَوْداوي سواد خبزه الذي لم يشبعوه ولم يجدوا له طريقا. فقد أصبحت القيم الجديدة بهذا المنظور مفرغة من أي أحاسيس تجاه هذا الوطن لأنها "أصبحت تشكل وعيها على مواجهة العالم الجديد الذي بات يتعفر في مثوى آسن، يعمه الشك المريب، عالم تنبعث منه معالم انهيار المعني والشك في اليقين... ومساءلة للأساسيات الراسخة، وهذا يعني عدم التسليم بقبول الحقائق المعطاة، وعدم التسليم المسبق بأن الحقائق تعمل على نحو محدد بصورة مسبقة."[27]وعليه فهذه العناصر (الخبز، الحرية) ستندرج ضمن أفق الاختيار الحر، وسببه الألفة للوطن الجديد، ونسيان ما سواه، والتخلي التدريجي عن انتمائهم وهويتهم القديمة.

2 - الهجرة وتحقيق الذات:

كثيرا ما تفكر "بلانكا" في الهجرة والهروب من الأرض التي كانت سببا في محنها التي تتالت عليها تباعا منذ أن كانت طفلة "كنَّا ننام نومًا كئيبًا وثقيلاً، وخانقًا ومحبطًا كل ليلة. لم يكن هناك ثمَّة بصيص من الأمل، الأيام تجر بعضها بعضا، تئن من التيه والضياع، ولم تعد الحياة ت غرينا أو تراقص أحلامنا التي تح رقنا، وقد كنت واحدة منهم، فقرَّرت أن أحمل حقائبي إن كانت لي حقائب وأرحل، أهيم في الصحاري والبحار مثلهم، فقط أحمل معي ذاكرتي النازفة، وأقيم جنازة في مخيلتي، رفاتها لا شاهد لهم. بهذا كن ت أثرثر مع نفسي، كلما أقف عند حافة البئر، وأنظر إلى طوابير النساء الموجوعات، وهن يتزاحمن عليها من أجل قطرة ماء."[28]

لقد توطدت العلاقة بالمكان (الوطن الجديد) وتوجيه الأفراد في تفكيرهم واعتباراتهم، فليس من الممكن، تجاوز كوْن الإنسان يقيم في موطنه الأصلي أو غيره. ونتيجة لهذه العلاقة تخرج دوال تحمل معاني إيجابية وسلبية في آن، نحو مواطن أصيل/ أو منفي دائم/ أو مؤقت/ أو لاجئ/ أو غير ذلك من الصفات. ويتبع هذا الشعور بالطمأنينة وبالقلق والغربة. وتعد معاني التئام الإنسان بالمكان أو "اللا التئام" معه من الموضوعات ذات الأطر الواسعة، وذات طبيعة خصبة أدبيا، لا سيما معاناةالمبعدين،[29] على الرغم من أن ما عاشته البطلة "بلانكا" وعائلتها في الجزائر، من جراء التسول وحُظوتهم بالخبز والعيش أفضل مما كانت عليه العائلة في إحدى قرى نيجيريا وما تئن منه من أوجاع وآلام، وما كابدوه من متعب ومحن من جراء الهجرة غير الشرعية والسرية إلى الجزائر.

"أعود إلى نفسي، أنَّ ما كنت أحسه هنا هو غربة الروح والجسد، في حيِّزي، كنت أشعر فقط بغربة الرُّوح، أما الآن، وفي هذا الحيِّز الكبير، خارجه كداخله أو ربما داخله أكبر من خارجه، مفتوح على نمط أرفضه وبقوَّة، ففيه أشعر بغربة الرُّوح والجسد معًا تتكالب عليَّ الوحدة التي اخترتها طوعًا هذه المرةَّ والحيرة التي فرضت نفسها عليَّ، داخل حيزِهم الكبير، وأخرى فرضتها على نفسي داخل غربة الروح"[30]

إنها حالة من التمزق بين حالتين أو مستويين من أنماط الهوية: أحدهما في نموذجية متعالية ومتسامية، والأخرى عمليّة، بل ومدنسة في الذهن رغم الممارسة، ونحن بين الحالتين متذبذبون، فبلانكا تتصارع مع إشكالية المكان والزمان "المكان، جغرافيًّا موجودٌ، وبمفهوم الذات والحياة أعتبره غير موجود، هذا الفضاء الذي يكتنفه البوح والتذكر تحوَّل إلى شيء مبهم عندي، أسراره موغلة في عبق التاريخ ومشرَّعة على هموم مجتمع يرتع في الخرافة والانتهاك الجسدي للأنثى، والاستلاب الروحي"[31] ولعل المسألة هنا ستكون أكثر وضوحا وواقعيّة حين تجد الذات نفسها في مواجهة مع الآخر، وتبدأ في ممارسة عمليتي الإقصاء والاستيعاب اللتين يفرضهما الاختلاف، أو بصورة أكثر تحديدا - متغيرية المكان.[32] هذه حال "بلانكا" التي وجدت ذاتها ممزقة أمام مجتمع الآخر العربي كما اختار زوجها فريكي، فحاولت الاندماج في أسلوب حياتهم، وتتبني أنماط معيشتهم، لأن "هوس التسلح بالوعي أثناء عملية البحث عن الذات وعن الهوية ضمن الفضاءين الجغرافي والاجتماعي أتصوره يكمن أساسا في إسناد القيمة الحقيقية لتلك المرجعيات والجَّدِ في تأويل/ تحديد علاقاتها مع مستويات المعيشي اليومي حتى أبرزت أيديولوجية السرد في "المعركة" ذلك التقابل الحاد بين النصوص كمرجعيات وبين الأنا كمستهلك لها، بغية

التحقيق في الهوية والتحقق من الانتماء الكامن وراء الرغبة الجامحة في الالتحاق بالأنا الجمعي/الحضاري.[33] الذي يقر بأن هذا العالم الجديد، لا يمكن التخلص من هوسه بل باقتحامه وبهذا تعايشت مع مبادئه التي جاءت من أجلها،"اليوم قد ضمنت رغيف الخبز لإفريقيا أو فيولاأو بوكاموسو، وفي هذه اللحظة بالذات، المدينةوشوارعها، وهذا العالم بأسره تركته لصيحاتهوجنونه وبؤسه، وما عدت بحاجة إليه، فرغيف الخبزفي فم ابنتي وأختي الصغرى فيولا والصغيربوكاموسو"[34]

منذ بداية إظهار الأنا المتسامي في نفسية "بلانكا" وهي ترسم لنفسها وعائلتها الأفق الذي ترنو إليه؛ بأن تعيش في سلام وطمأنينة ولا يتكرر وجعها وتنفطر ذاتها مرة أخرى بمعاودة الألم مع أختها الصغيرة وابنتها إفريقية، كما تطمح إلى ما وعدت به أمها في الغربة وهو الخبز الكثير "والإنسان الصامت بداخلنا هو الوحيد الذي ينسج لنا أحداثاً متشابكة، نعيشها لفترة من الزَّمن حتى نوغل في النسيان، وفي مرَّات نجد هذا الإنسان المسحوق ينتفض ليصارع المكان، من أجل تحقيق الذات المدمرة بداخلنا وتخطي دروب القهر والعزلة، والبحث عن الآخر المولع بالحياة ودفئها"[35] فقد انتصرت "ذات" "بلانكا" في النهاية وحققت ذاتها التي كانت تسعىإلى أن تعمق أشواقها للتعبير عن نفسها في الارتباطات بالأشخاص الآخرين وفيأشكال الحياة الاجتماعية. "فليس بوسعنا السيطرة على أنفسنا وتطويرهااللهم إلا إلى الحد الذي ننجح فيه، في التجربة اليومية للحياة الاجتماعيةفي التسوية بين تأكيد الذات وبين الارتباط بالآخرين. يضع تنظيم المجتمعوالثقافة الشروط التي يمكننا من خلالها أن نتمنى القيامبذلك"[36]لذلكيمكن أن تثمر علاقة الأنا بالغير بل وتزدهر، لأنها علاقة يستحيل فصل أحد طرفيها، ولأن في علاقتهما إنعاش للفكر، وتجذر الوعي بالذات عموما وبالغير على وجه الخصوص، وباعتبار العلاقة الإيجابية بالغير هي جوهر الحياة، لذا سينتقل الرهان إلى ساحة الإدراك الواعي للحياة اليومية، رهان لكسب الذات وفهم الغير والتعايش البناء.

خاتمة:

كانت هذه الشذرات القرائية وقفات تأملية مع بعض تجربة عائشة بنور السردية التي حكت لنا عن آلام وأوجاع "بلانكا" بطريقة فيها الكثير من التشويق، باللعب على مخيلة القارئ، والتعايش مع آهات وزفرات النص الموجوعة.

كما مثلت هذه الرواية نوعية سردية تحوي في طياتها الكثير من القيم الجمالية التي ترومهاالساردة؛ بأن تضع القارئ في قالب جديد من تسريد للقبيح/الوجع بشكل جميل وجذاب. وكأنهاتدعوه إلى عرض جسده وذاته وذاكرته على أصناف الألم كفتنة تحاول أن تستخرج منه ذلك الموجوع المحموم بألمه، تُخرجه من صمته المطبق.

وقد توصلنا في هذا البحث إلى جملة من النتائج نوجزها في النقاط الآتية:

- صنعتالساردة بكتابة الوجعموقعا جديدا في عالم السرد، وهو نجاح تمكنت فيه من ملامسة قلوب المتلقين وتحريك مشاعرهم نحو معايشة شخصيات الرواية.
- تمثلات الوجعتمت بتقنية محكمة البناء؛ حيث كانت متنوعة بين النفسية، والجسدية والمتخيَلة الموهومة.
- كتابة الألم تمت بمراحل متدرجة؛ حيث تتنقل بالتدريج في توزيع أوجاعشخصياته بدرجات تدعو إلى التأمل، وتضع المتلقي في الموضوع على مهل وبروية حتى يتحقق التفاعل المطلوب.

- عالجت الرواية موضوعات حساسة كمشكلة ختان الفتيات، ومشكلة الزنوجة كرفض لفكرة التمييز العنصري في العالم، كما عالجت مسألة الهجرة نحو الشمال بحثا عن الرزق والخبز الكثير.
- كشفت رواية كتابة الوجععن مدى معاناة الجسد الأنثوي المعذب من اغتصاب، وإجباره على ممارسة ما لا يطيق.
- كما عزف نص تسريد الوجععلى أوتار عاطفة المتلقي بالتفاعل والتعايش الإنساني، محاولا السارد في ذلك أن يثير عاطفة الشفقة، ومستغلا في ذلك التفاعل العاطفي.

وفي الختام يوصي البحث بالآتي:

- اشتغال الأبحاث القادمة بالجانب التطبيقي والممارساتي لهذا النمط من الكتابة.
- اشتغال وحدات البحث والمشاريع البحثية بقراءة الأعمال السردية ذات التجربة الإنسانية العاطفية.
- عناية مخابر البحث بالكتابة السردية وتوجيه اللقاءات العلمية والمناقشات، وكذا إقامة ورشات عملية لتبني طروحات ونظريات السرد المعاصرة، وآليات القراءة. قصد تكوين قراء للنصوص السردية ذات التجربة العميقة.

هوامش وإحالات المقال

1عائشة بنور، الزنجية، دار خيال للنشر، برج بوعريريج، الجزائر، ط1، 2020، ص 17.

2 سعيد بنكراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2008، ص 151.

3 ينظر: نفسه، ص 151.

4الزنجية، ص 20.

5 الزنجية، ص 20.

6 الزنجية، صص 54- 55.

7الزنجية، ص 148.

8الزنجية، ص 30.

9 الزنجية، ص 12.

10 الزنجية، ص 14.

11 الزنجية، ص 12.

12 الزنجية، ص 13

13 الزنجية، ص 110.

14الزنجية،ص 30

15 الزنجية، ص 11.

16 الزنجية، ص 12.

17 الزنجية صص26-27.

18 الزنجية، ص 29.

ينظر: جون ماكوي، الوجودية، ترجمة: إمام عبد الفتاح، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، أكتوبر 1982، 19 العدد58، ص 82.

20 الزنجية، ص 52.

21 الزنجية، ص 53.

22 الزنجية، ص 56.

23 ينظر: جون ماكوي، الوجودية،ص120.

24تزفيطانتودروف، ميخائيل باختين المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1996.ص 179.

25 محمد فتحي، أنت والآخرون، دار الأندلس الحديثة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2008، ص 18.

26 الزنجية، صص 79-80.

27 عبد القادر فيدوح، تأويل المتخيل السردي، السرد والأنساق الثقافية، صفحات للنشر والتوزيع، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2019. ص116.

28 الزنجية، ص 21.

29 ينظر: يوسف حسن محمود، الهوية وتجلياتها السردية في أعمال إيميل حبيبي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية، 2007. ص28.

30 الزنجية، ص 149.

31 الزنجية، صص 55-56.

32 ينظر: نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية، في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، 2007، ص10.

33بشير بويجرة محمد، الأنا الآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، منشورات دار الآداب، وهران، الجزائر، دط، ص 117.

34 الزنجية، ص 146.

35 الزنجية، ص 56.

روبرتو مانغابراأونغر، يقظة الذات، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم، عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني الثقافة والفنون، الكويت، العدد، 375، 36 2010، ص146.

قائمة مصادرومراجع البحث

أولا: المصدر:

1. عائشة بنور، رواية الزنجية، دار خيال للنشر، برج بوعريريج، الجزائر، ط1، 2020.

ثانيا: المراجع:

2. بشير بويجرة محمد، الأنا الآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، منشورات دار الآداب، وهران، الجزائر، دط،
3. تزفيتان تودروف، ميخائيل باختين، المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1996.
4. جونماكوي، الوجودية، ترجمة: إمام عبد الفتاح، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، أكتوبر 1982، العدد58.
5. روبرتو مانغابراأونغر، يقظة الذات، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم، عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني الثقافة والفنون، الكويت، العدد، 375، 2010، ص146.
6. سعيد بنكراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2008.
7. عبد القادر فيدوح، تأويل المتخيل السردي، السرد والأنساق الثقافية، صفحات للنشر والتوزيع، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2019.
8. محمد فتحي، أنت والآخرون، دار الأندلس الحديثة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2008.
9. نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية، في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، 2007.
10. يوسف حسين محمود حمدان، الهوية وتجلياتها السردية في أعمال إيميل حبيبي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية، 2007.